مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

من خصائص الدّلالة القرآنيّة

الدكتور : سعيد لفاني

نزل القرآن بلسان عربي مبين، ومن تمام صفة البيان لذلك اللسان ما ركب في ألفاظه الغنية من خصائص صوتية وصرفية فهي مأمونة اللبس، واللفظ العربي يخرج من مخارج متمايزة في جهاز النطق البشري، يقول العقاد: «وجميع المخارج الصوتية في اللسان العربي مستعملة متميزة بأصواتها، وليس في العربية حرف يلتبس بين مخرجين»[1]، وذلك التميز في المخارج والثراء في الحروف جعلها لغة موسيقية مؤثرة بإيقاعها وتناسق حروفها في مفرداتها، وقد أقر بذلك بعض المستشرقين، يقول بلاشير: «إن اللغة العربية أداة قوية وغنية بالأصوات

(1) اللغة الشاعرة ـ مصر ـ مطبعة الاستقلال الكبرى ـ د. ت ص54.

التي تدفع إلى التماس الأنغام الموسيقية»[2].

ويضاف إلى تلك الخصيصة ظاهرة الاشتقاق التي تيسر للأديب الناثر أو الشاعر أن يصوغ مفردات تتمتع بخصائص موسيقية مشتركة، كما أن المقاطع في الكلمة العربية وفي الجملة تنقسم إلى صنفين: مقاطع مقصورة، ومقاطع ممدودة، فالمقصورة تتألف من متحرك منفرد، والممدودة تتألف من متحرك وساكن، والأول خفيف والآخر ثقيل وهذا ما يساعد على إكساب الكلمة والعبارة إيقاعاً منبعثاً بين الخفة والثقل في شيء من التريث الذي يجعل الكلمة تنبعث واضحة فصيحة، كما أن ظاهرة الإعراب لها أثرها في إحداث التأثير الإيقاعي المشبع لروح السامع والناطق معاً، يقول العقاد في اجتماع تلك الخصائص للغة العربية: «وتنفرد اللغة العربية بسمة الشاعرية، لأنها جمعت على هذا المثال البديع بين أبواب الاشتقاق وأوزان العروض وحركات الإعراب»[3].

ومع سعة اللغة العربية في مفرداتها وأصولها التي تساعد على الاشتقاق، ومع انفتاحها على اللغات المجاورة لها، فإنها لم تستطع الدلالة على جميع مضامين النص القرآني، لذلك نرى أن النص القرآني يستخدم إيحائيات بلاغية تشبه الرموز المنبثقة من تراكيب لغة ما؛ لاستيفاء التعبير الذي قد تعجز عنه اللغة المعروفة بين الناس، وإليك بياناً لبعض من تلك الأساليب التعبيرية القرآنية، وهي تُعدُّ من خصائص النص القرآني في الدلالة على المعنى دلالة تجمع بين الإفهام والإحكام، ومخاطبة العقول والمشاعر، والخواص والعوام، وقضاء الحاجات العقلية في الهداية، وإشباع الأذواق في البلاغة للأولين والآخرين:

1 ـ الإحكام والتشابه:

إن القرآن كله محكم من حيث كونه متقناً في ألفاظه وتراكيبه خالياً من التناقض، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، ولكن للمحكم والمتشابه من القرآن معنى آخر، عند المقابلة بين معاني الآيات من حيث التلميح

(2) انظر تاريخ الأدب العربي لطه حسين ـ العصر الجاهلي ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ص48.

(3) اللغة الشاعرة ص25.

والتصريح بالمعنى، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

وقد كثرت الآراء في تحديد معنى كل من المحكم والمتشابه والفرق بينهما، وقبل إبراز الرأي المختار في ذلك، نلفت العقول المتدبرة إلى سر التقابل بين المحكم والمتشابه في الآية، ولماذا لم يأت القرآن جميعه محكماً يظهر معناه للسامع المتعهد على اللفظ العربي المبين؟

لقد جاء القرآن الكريم بأخبار غيبية وأحكام تشريعية، وأعلم عن أحوال كثير من الأحياء البشرية والحيوانية، وتكلّم عن مخلوقات يراها الإنسان، ومخلوقات لا يراها كالملائكة والجن، والإنسان يتكلم بلغة مصنوعة من خامات بيئته وحضارته، فإذا ما اقتصر القرآن في مخاطبته على ما عهد من تلك المادة اللغوية التي صنعها الإنسان نفسه، التبس عليه الأمر، وظن أن ما يسمعه بالوحي هو من جنس ما يصنعه، ويسمعه، ويراه في بيئته المحدودة، والقرآن فوق الحدود المكانية والزمنية، فكيف السبيل إلى التوفيق بين إفهام الإنسان ببيئاته المختلفة، وعصوره المتلاحقة، واللغة كائن حي محدود التركيب والتوليد؟

لم يبق في التعبير عن تلك المعاني التي لم يألفها الإنسان وقت نزول الوحي إلاّ بالإيحاء القائم على التشابه بين المعاني المعهودة لديه، والمعاني الجديدة، في حركة تشبه المجاز والاستعارة، يقول الرازي في بيان هذا السر: «إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح»[4].

(4) مفاتيح الغيب: مكة المكرمة وبيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط(1411/ 1990): 7/ 149.

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، لا بُدَّ في إدراكها إدراكاً صحيحاً من الجمع بين معنيين: أولهما معهود لدى الإنسان وهو الاستواء في الآية الأولى، والوجه في الآية الثانية واليد في الآية الثالثة، وبين معنى لم يعهده السامع وهو القدرة الإلهية المطلقة في التدبير، والمقصود بالوجه ذات الله العلية التي بلغت الكمال المطلق، ويقرب الله ذلك المعنى للإنسان بأكمل شيء فيه وأجمله وأشرفه وهو الوجه، والتعبير باليد للدلالة على كمال القدرة في الخلق والبطش، والقرآن وهو يحدّثنا عن أمر غير مألوف لنا، كالجحيم يصور فظاعته وشدة عذابه بقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] فالجمع بين المحكم والمتشابه في خطاب القرآن أمر اقتضته ضرورة الناس العقلية إلى ما يقرب لهم المعنى الغائب عنهم بالمتشابه، وإلى الانطلاق من قواعد فهمهم للمعاني الأصلية غير المستعارة في المحكم، وهذا أمر يتعلّق ببقية المعاني غير المعهودة في الذهن العربي، يقول سيد خليل: «فالقرآن الكريم إذن يمثّل ناحيتين، هما الناحية الواقعية التي يحياها المجتمع العربي في صحرائه ثم هذه الناحية المثالية التي ينبغي أن تكون هدفاً..»[5].

وتكاد تلتقي الآراء المتعددة في بيان المحكم والمتشابه من القرآن في أن المحكم: هو اللفظ الذي ظهر المراد منه، ويدل على معناه دلالة صريحة، والمتشابه ما يحتاج في فهمه إلى تأويل أي إلى إرجاع إلى معنى المحكم بترجيح عقلي، يصرفه عن معناه الدال عليه بطريق التصريح.

نقل السيوطي عن العلماء هذا المعنى المختار فقال: «المراد بالمحكم ما اتضح معناه، والمتشابه خلافه»[6].

ويقول في تفسير الآية التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7]: «إنه تعالى أوقع المحكم موضع المتشابه، فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله، ويعضد ذلك أسلوب الآية:

---

(5) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ـ بيروت، دار النهضة العربية ـ 1968م ص17.

(6) معترك الأقران في إعجاز القرآن ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط أولى (1408/ 1988) 1/ 107.

وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرّق ما جمع في معنى الكتاب بأن قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء، فقال أولاً: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ..﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وكان يمكن أن يقال: وأما الذين في قلوبهم استقامة فيتبعون المحكم، لكنه وضع موضع ذلك: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، لإتيان لفظ الرسوخ، لأنه لا يحصل إلاّ بعد التتبع العام والاجتهاد البليغ»[7]، والمتأمّل في الآية وسياقها ومقصدها، يرجح أنه ليس المراد نفي علم الراسخين بالمتشابه، بل نفي أن يكون علمهم له على سبيل الجزم، فإذا كان مقصود الآية نفي العلم به مطلقاً، فما فائدة قوله في صدر الآية في وصف المحكمات هن أم الكتاب؟ وما فائدة قوله في ختام الآية: وما يذكر إلاّ أولو الألباب؟ فالإرجاع إلى المحكم نوع من العلم بالمتشابه، ووصف الراسخين بالتذكر مفيد في تقرير أنهم يعملون العقل في ذلك الإرجاع، والمقصود العام للآية هو الإيمان بذلك المتشابه سواء عُلِم أم لم يُعلم من قبل الراسخين وغيرهم من المؤمنين، ورفض منهج الزائغين الذين يفسّرون المتشابه على مقتضى ما في نفوسهم من الهوى وعقولهم من الضلال وليس على مقتضى المحكم من القرآن كالتوحيد والتنزيه لله تعالى.

وبذلك يفتح القرآن مغاليق المعاني التي عبّر عنها بالمتشابه المقرب للمعنى الذي لا يمكن أن يدركه العقل إلاّ بالتقريب والتمثيل، فيكتسب ثمرة التأمّل العميق، والنظر الدقيق، يقول الفخر الرازي في هذا المعنى: «إن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد»[8].

2 ـ الإجمال والبيان:

إن المعنى أو الحكم يوصف بأنه مجمل إذا كانت دلالته مبهمة غير

---

(7) م. ن: 1/ 107.

(8) مفاتيح الغيب: 7/ 149.

واضحة، وإذا انكشفت دلالته بجلاء كان موصوفاً بأنه مبيَّن، وللإجمال مواطن يزينها، وللبيان مواطنه، فمن المواطن التي يحسن فيها الإجمال تقرير القواعد العامة، فإن تفصيل جزئياتها بالبيان يذهب قوة أثرها في العقول، ولكن يأتي بيانها في غير معرض الاستدلال والتقرير، فالقرآن الكريم وهو يتحدث عن الصلاة وأهميتها في الدين لم يتطرّق إلى بيان شروطها مفصلة ولا أركانها ولا مبطلاتها، ولم يفصل أوقاتها تفصيلاً، ولو خاض القرآن في الجزئيات، لذهبت قدسية هذه الشعيرة من مشاعر الناس، لإحساسهم بأهمية الجزء دون الكل، واقتصر القرآن في بيان بعض جزئيات هذه العبادة على ما يؤكد أهميتها وضرورة المحافظة عليها، كبيانه لصلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ . . .﴾ [النساء: 102]، أو بيان مفتاح الصلاة وهو الوضوء والغسل، ولا شك في أن التنبيه على أهمية الوسيلة مزيد اهتمام بالمقصد، وكذلك فعل القرآن في التحذير من البيوع الفاسدة، حيث أجمل فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: 275].

وقد يسلك القرآن منهج الإجمال في بعض الأحكام والمعاني تيسيراً في الحكم، وتوسعة لحدود المعنى، ففي عدة طلاق المستحاضة يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228]، والقَرْء لفظ مشترك يطلق على الحيض والطهر، فجعله القرآن صالحاً للاستخدام في أحد الحالين بحسب البيئة وطبيعة الأحوال، فالاحتمال وترك التحديد مقصود في الآية، وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: 237]، فالذي بيده عقدة النكاح يحتمل أن يكون الزوج ويحتمل أن يكون الولي، فأبهم مراعاة لمقتضيات الأحوال التي تستدعي صدور العفو من الزوج أو من الولي، وكذلك الأمر في مسح الرأس في الوضوء[9].

وقد يكون الإجمال طلباً للجمع بين مخاطبة العوام والخواص من الناس،

---

(9) حيث جاء التعبير بالباء مع الفعل المتعدي، ولو اقتصر على الفعل لدل على تعميم المسح الذي قد يشق على النفس أحياناً، وقد يخف عليها في بعض الأحايين، قال الله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة: 6].

فالقرآن موجه لجميع البشر على اختلاف عقولهم وبيئاتهم، فناسب ذلك الاختلاف أن يكون للإجمال نصيب في آيات القرآن، ولو جاء نص الخطاب مفصلاً لأرهق عقول العوام، فعندما تحدث عن الأرض وصفها بالانبساط، ولم يصفها بأنها مسطحة مناسبة لعقول الخواص، ولم يصرح بأنها بيضوية أو كروية مراعاة لإدراكات المتقدمين وغير الناظرين في العلوم الكونية، وكذلك الأمر في الإيلاج بين الليل والنهار، يفهمه العوام بأنه صورة للتعاقب المنظور، ويفهمه الخواص من العلماء على أن الأرض تتعرض للشمس في جزء منها فيكون نهاراً في حين يكون جزء منها ليلاً وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [آل عمران: 27]، وكذلك الإجمال في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، يقول الشعراوي: «إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة، فالتراب الذي نضع فيه البذر لو أخذنا بعضاً منه في مكان معزول فلن يخرج منه شيء، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف الميت في الدرجة الأولى، وأما النواة التي يمكن أن تأخذها وتضعها في هذا التراب، فيصفها العلماء بأنها، الميت من الدرجة الثانية، وعندما ننقل الميت في الدرجة الأولى، ليكون وسطاً بيئياً للميت في الدرجة الثانية، تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معاً، وقد مس القرآن ذلك مسّاً دقيقاً»[10] ثم يقول في تحليل ذلك الإجمال المقصود في الآية: «لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها التناول الذي تتقبلها به كل العقول، فعقل الصفوة يتقبلها، وعقل العامة يتقبّلها أيضاً، لأن القرآن عندما يلمس أي أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع»[11].

ويقول العقاد في حكمة ذلك الإجمال: «وليس الخطاب مقصوراً على العرب الأميين ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين، ولكنه عام مطلق لكل

---

(10)، (11) تفسير الشعراوي، القاهرة ـ مطابع أخبار دار اليوم ـ 18/ 1414، 1415.

عصر ولكل مكان، إذ ليس من المعقول أن يفكّر الإنسان على نسق واحد في جميع العصور»[12].

ومن أسرار الإجمال في مواضع والبيان في مواضع أخرى الدلالة على أن القرآن متآلف المعاني وأنه يفسر بعضه بعضاً، فقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] فسّره بقوله: ﴿ثُمَّ . . . مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 18 ـ 19]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37]، فسّره بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . .﴾ [الأعراف: 22].

كما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ [الزخرف: 17]، بالأنثى بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: 58].

ومن ذلك بيان أن الطلقتين رجعيتان في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: 229] بقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: 230].

وقد يكون في آية مجملة ما يدل على أن بيانها في موضع آخر كقوله تعالى مجملاً: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، فصّله قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3].

ومن هذا القبيل قوله تعالى على سبيل الإجمال: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15]، بيّن القرآن ذلك السبيل بقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]، مصحوباً ببيان النبي ﷺ برجم المحصن.

وإذا كانت بعض الأحكام تحتاج إلى بيان لأنها معرضة للتأويل الفاسد من بعض العقول، فإن القرآن يبيّنها كما هو الشأن في أنصبة الورثة حسب ما ورد في

---

(12) ما يقال عن الإسلام ـ ضمن الأعمال الكاملة للعقاد ـ المجلد السادس ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبناني: ص544.

أول وآخر سورة النساء، وكما في بيان حد القذف، وفي القصاص الذي كان يحرّف في الجاهلية بقتل غير القاتل. فقال في شأن حد القذف والزّنا في مطلع سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ ثم قال بعد التوطئة بالبيان: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ..﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ...﴾، وقال في شأن القصاص: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ..﴾ [البقرة: 178].

وكما في كفارة الأيمان التي لها علاقة بالجانب العقدي من حيث وجوب الالتزام في القسم بالله، فقد قال الله في موضع من القرآن: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: 2]، وقال في موضع آخر: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: 89] وقد يكون المعنى مجملاً ومبيناً في موضع واحد من القرآن تنبيهاً على أهميته وتشريفاً لشأنه، أو تحذيراً منه وتعريضاً بسوء فعله من مثل قوله تعالى في القرآن والرسول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: 10 ـ 11]. وكقوله في الجنة: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ [الرعد: 22، 23]، وكقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: 52، 53]، وكقوله في الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 6 ـ 7]، وبيَّن في موضع آخر المنعم عليهم فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

ومن إجمال الشيء وبيانه لأجل التحذير منه قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: 44، 45]. وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 2، 3].

وقد يأتي الإجمال بعد البيان إشعاراً بالمقصد وتذكيراً بالأهمية للمجمل والمبيَّن معاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وبعد تعداد أوصافهم أردف بالحكم العام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 4]، ويطرد هذا النوع في التذييلات التي تلحق أواخر الآيات من مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾: [الأنعام: 103] وأكثر الآيات القرآنية أجملت معانيها في أواخرها تقريراً وتنبيهاً.

فليس الجمع بين المجمل والمبين في القرآن لمحض تنويع الخطاب، بل هو بلوغ بالمعنى غاية لا تدرك بغير ذلك في مراعاة مقتضى أحوال الناس عالمين ومتعلمين، وكتبة وأميين، ومتقدمين ولاحقين.

3 ـ الحقيقة والمجاز:

لا يراد بوصف الحقيقة في البيان ما هو ضد الكذب، بل هو إطلاق مخصوص بالوضع الأصلي للكلمة، والمجاز تطور دلالة الكلمة من معنى معروف في الاستعمال إلى معنى جديد استجابة لحاجة التحضر الإنساني والتطور الفكري.

وقد نزل القرآن والعرب أمة تغلب عليها البداوة، فخاطبهم بمعان مواكبة لعصرهم، وموافقة في الوقت نفسه لعصور لاحقة وبيئات مختلفة، وكان من وسائله في تلك المواكبة وذلك التوفيق استخدام الحقيقة والمجاز، والجمع بينهما أحياناً في لفظ واحد، أو في تركيب مستقل، وتعاليم القرآن وتنظيماته غير المألوفة في أكثرها لدى المنزل عليهم استدعت استخدام تطور الدلالة من معنى معهود إلى معنى جديد، يقول السيد خليل: «وقد أدى نزول القرآن على هذا النحو إلى أن تغيرت مفاهيم كثير من الألفاظ التي عبرت عن مقررات من هذا

الدين عقيدة أو عملاً، وكان ذلك أول باب من أبواب التجوز في حياة اللغة بعد الإسلام، فمن ذلك: المؤمن، والكافر، والمسلم، والمنافق، والصلاة، والزكاة، والحجّ، والعمرة، والجهاد، وما إليها من الألفاظ التي صارت فيما بعد حقائق يدل بها على أبواب العبادة وطرائق التشريع»[13].

والمجاز من أقسامه الاستعارة التي هي نقل الكلمة من معنى معروف بها إلى معنى جديد لعلاقة المشابهة بينهما، لغرض البيان والتأثير، مثل إظهار الخفي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: 4]، فإن حقيقته: وإنه في أصل الكتاب، «فاستعير لفظ الأم للأصل؛ لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئياً»[14].

ومنه المجاز في المفرد، «المجاز اللغوي»، وهو استعمال اللفظ لغير ما وضع له في الأصل[15]؛ لعلاقة غير المشابهة، من ذلك إطلاق الجزء والمقصود به الكل، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: 27] والمراد ذاته سبحانه، وإطلاق الكل على الجزء مبالغة في إظهار أثر الشيء كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: 19]، أطلق الأصابع وأراد الأنامل منها مبالغة في الفرار، ومنها تسمية الشيء بما يؤول إليه كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 36]، أي عنباً سيصبح خمراً.

والنوع الثالث من المجاز هو ما كان في التركيب الإسنادي، ويسمى بالمجاز العقلي، وعلاقته الملابسة[16] بين المعنى المنقول منه والمنقول إليه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمّد ﷺ: 21] أي عزم عليه، بدليل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ [آل عمران: 59].

ولن نتعرض في هذا المقام لتفصيل مجازات القرآن، والتفريق بين الآيات

---

(13) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ص20.

(14) السيوطي: معترك الأقران: 1/ 209.

(15) الزركشي: البرهان: 2/ 259.

(16) م. ن: 2/ 256.

التي سيقت بطريق الحقيقة والآيات التي عبرت بالمجاز، بل غرضنا هو بيان تفرد القرآن وقت نزوله بظاهرة لغوية بلاغية غاية في التطور بالدلالة، وهي الجمع بين الحقيقة والمجاز في موطن واحد من المفرد والمركب اللفظي، وقل من تكلم في هذا النوع من المفسرين والبلاغيين بل أنكره بعضهم، يقول الطاهر بن عاشور في بيان اختلاف العلماء في قبول هذا النوع وتأويلهم للآيات التي احتوت عليه: «وقد أشار كلام بعض الأئمة إلى أن مثار اختلافهم هو عدم العهد بمثله عند العرب قبل نزول القرآن»[17].

وممن تعرض للآيات الجامعة بين الحقيقة والمجاز ابن عرفة في تفسيره ففي بيان قوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45]: «وهو من استعمال اللفظ الواحد في حقيقته ومجازه»[18] يقصد كلمة المسيح الدالة على الممسوح بالبركة في معنى الاستعمال، والمنقولة للدلالة على عيسى عليه السَّلام.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] يقول ابن عرفة في الفعل: «وليأخذوا»: «إذ استعماله في حقيقته ومجازه، ومجازه أمر ضروري لا بد منه، لأن كل واحد في الجهاد مأمور بأخذ الحذر وحمل السلاح فالمجاز لازم»[19].

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: 18]، يقول ابن عرفة في التنبيه على أن الفعل (جاء) دال على الحقيقة والمجاز معاً «وهو من باب استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه؛ لأن بعض أشراطها هو مبعث النبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان، وباقيها لم يقع»[20].

ومن أمثلة استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازه، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ

(17) التحرير والتنوير: تونس ـ الشركة التونسية للنشر ـ 1984م 1/ 98.

(18) تفسير ابن عرفة برواية الأبي ـ مخطوطة رقم 10770 ـ المكتبة الوطنية تونس، ق123 وجه.

(19) تفسير ابن عرفة برواية الأبي مخطوطة رقم 21269 ـ ق204 وجه.

(20) م. ن: مخطوطة رقم 3453 ـ ق 390 ظهر.

وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ..﴾ [الحج: 18]، فيقع السجود بمعناه الحقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض من الناس، ويحصل بالمعنى المجازي وهو: التعظيم من غيرهم، ومن أمثلته كذلك قوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ..﴾ [الممتحنة: 2]، فبسط الأيدي بالضرب حقيقة، وبسط الألسنة ببذيء القول مجاز، ويمكن أن تحمل الصلاة من النبي ﷺ على الدعاء والصلاة على من مات منهم، في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 103].

ومن استعمال المركب المشترك في الحقيقة والمجاز معاً، قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1] فصيغة لفظي ويل ولام الجر[21]، حملها المفسرون على معنى الخبر أي أن الله يتوعدهم بإخباره عن مآلهم، وعلى معنى الدعاء وهو مجاز. والمعنى أن المظلومين يدعون بالويل على المطففين بقولهم: «اللهم عاقبهم بالويل» كقوله في آية أخرى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38]، ومن هذا القبيل الجمع بين الحقيقة والمجاز في معنى المغضوب عليهم والضالين، إذ تنصرف إلى اليهود والنصارى على المجاز، وتنصرف إلى أصل الوضع من الدلالة على من حل عليهم غضب الله ومن أضلهم الله، وذلك في قوله تعالى من سورة الفاتحة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7].

فبدا لنا ثراء الدلالة القرآنية في التزود من المجاز مع المحافظة على أصول المعاني، وكان لذلك أثره في نمو وازدهار العلوم اللسانية والعقلية في الحضارة الإسلامية، فقد نقلهم القرآن من حرفية اللغة وحسيتها إلى رحابة الفكرة وعمق النظرة.

4 ـ مخاطبة العقل والوجدان:

كما أن دعوة القرآن عامة، فإن أسلوبه يتسم بالشمولية في الجمع بين البرهان العلمي المقنع للعقل، والتأثير الأدبي المحرك للشعور، فمن الناس من

(21) التحرير والتنوير: 1/100.

يتعلّق بالفكرة ثم ينظر فيها بعقله، وقد انجذب إليها بحدسه وشعوره، ومن الناس من يتقدم بعقله قبل شعوره، والأولون هم الأدباء، والآخرون هم العلماء، فأراد القرآن أن يوحد بينهم بمخاطبتهم جميعاً في دلالات إفرادية وتركيبية تكون محل تأمّل عقلي من العلماء، ومنزع انجذاب لمشاعر الأدباء، فجمعت دلالة القرآن بين دقة المعنى وجمال التصوير، وذلك متضمَّن في الكلمة الواحدة والعبارة التامة والسورة المتكاملة، يقول السيد خليل في مفاجأة القرآن للعرب بهذه الخصيصة الحميدة: «ولم يكن لدى العرب يومئذ من منابع ثقافية تزود اللغة بزاد أعمق وأخصب، ومن هنا كانت دهشتهم عندما سمعوا القرآن، ووجدوا فيه قيماً فنية من نوع آخر لم يتح لهم أن يتصلوا بها، ومن هذه القِيَم ما يمس الصورة أو الإطار الفني الأدبي، ومنها ما يمس الفكرة، ومنها ما يتصل بالتصرف في اللغة نفسها من ناحية الاشتقاق وتعدد الصيغ، ثم من ناحية التركيب واختيار الكلمات، على نحو يجمع بين إثارة الوجدان والعقل جميعاً»[22].

فآخى القرآن بين العلم والأدب في خطابه، كما آخى بين العقل والشعور، وهذه الألفة دليل على الإعجاز القرآني، لأنها دلّت على دقة وثبات في البرهان، وقوة وإمتاع في إثارة الوجدان، انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ . .﴾ [الرعد: 16 ـ 17]، فقد عانق القرآن بين التأثير في العقل بالبرهان، وفي النفس بذلك التصوير الرائع الذي يمتلىء بالحركة والجمال في كل كلمة وفي كل مقطع وفي كل عبارة من الآيتين، يسوق الله ذلك إلى مقصد شريف وهو أن الحق ثابت باق، والباطل زائل زاهق.

ولقد جاءت ألفاظ القرآن غنية بجمالها ونغمها وتصويرها، فليست كلمة القرآن بمنأى عن التأثير وهي مفردة، كما أن تأثيرها يزداد جمالاً إذا تعانقت مع بقية المفردات في سلك من النظم الدافق بالحياة والحركة والصورة والإيحاء،

---

(22) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ص18.

يقول عمر السلامي: «إن دارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من الجمال والفن، وصورة الإبداع التي تشع منها، وظلال المشاهد الحية، وقوة الحركة فيها، وتأثيرها على النفس وفتح الآفاق، لتحل اللفظة محل ريشة رسام مبدع، فتصور بالألوان والخطوط وتنقش فيها الحياة»[23].

كما جاءت ألفاظه قوية في أداء المعنى المطابق للحق والمقنع للعقل بعد انتظامها في أدلة وبراهين تصيب الحق، وتنعش الذوق، وتحرك العقل في دورة فكرية تجمع بين سلامة الفكرة وجمالها، فلم تبن دلالات القرآن في مفرداته وتراكيبه على الخيال، بل تأسست على الحق، وهي مع ذلك تحرك خيال الإنسان وتصور مشاعره بقدر يعجز هو نفسه عن تحديده، وأنّى له ذلك؟ فشتان بين وصف الخالق وتصور المخلوق.

ومن الشواهد الدالة على الجمع بين مخاطبة العقل والوجدان في القرآن، قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ [إبراهيم: 18]، فقد صور بطلان أعمال الكفار الحسنة لبطلان إيمانهم بالرماد الذي تذروه الرياح، ومعلوم أن الرماد لا يحمل بذور الحياة، ولذلك لم يعبر القرآن بالتراب.

واستمع إلى قوله تعالى في التدليل على فساد رأي النصارى في الاحتجاج بخلق عيسى من غير أب على ألوهيته، فتأتي الطعنة النجلاء لهذه الشبهة من القرآن في أسلوب موجز مؤكد يجعل التشبيه قياساً قائماً على مسلمة يدركها المؤمن والكافر، والعالم والجاهل، والصغير والكبير، مع روعة التأثير التي تجبر القارىء والسامع على التوقف والتأمل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

وفي استدلاله على الوحدانية يترك للعقل مجاله في الإدراك، وللشعور مجاله في التأثر، يقول الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُل لَّوْ

(23) الإعجاز الفني في القرآن ـ تونس ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ 1980م ص72.

كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 40، 41، 42، 43].

ومن هذا القبيل قوله عز وجل: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101].

وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

وكقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

وفي الجزم بأنه وحده هو القادر على منع هلاك السموات والأرض يقول: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41].

ويثير في النفس كوامن الرغبة والرهبة حتى تقبل على الأمر الملقى إليها في الآية، ثم تنظر فيه بالبصيرة النافذة والعقل الراشد من ذلك قوله في الترغيب: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 266] ثم تبدأ مرحلة الترهيب في الآية: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ . .﴾، وذلك في معرض النهي عن بطلان الصدقات بالرياء.

ومن ذلك الأسلوب الجامع قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65]، وأكثر آيات الاستدلال تجري في هذا الأسلوب الذي يجعل العقل متدبراً والشعور يقظاً، حتى لا تكون الفكرة جافة صلبة، ولا يكون الشعور هائجاً مدمراً، بل إحداث التوازن بين العقل والوجدان، والعلم والإحساس من مقاصد الآيات القرآنية في مخاطبة الإنسان الذي لا يفكر إلاَّ بشعور، ولا يشعر إلاَّ بتفكير.

المصادر والمراجع

- العقاد: عباس محمود ـ اللغة الشاعرة ـ مصر ـ مطبعة الاستقلال ـ د. ت.
- العقاد: ما يقال عن الإسلام ـ ضمن الأعمال الكاملة ـ المجلد السادس: بيروت ـ دار الكتاب اللبناني.
- طه حسين: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ بيروت ـ دار العلم للملايين.
- الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ـ مكة المكرمة ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ (1990).
- السيد أحمد خليل: المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ـ بيروت ـ دار النهضة العربية ـ 1968م.
- السيوطي جلال الدين: معترك الأقران ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط أولى 1988م.
- الشعراوي ـ تفسير الشعراوي ـ القاهرة ـ مطابع أخبار اليوم.
- محمّد الطاهر عاشور: التحرير والتنوير ـ تونس ـ الشركة التونسية للنشر ـ 1984م.
- ابن عرفة الورغمي ـ تفسير ابن عرفة برواية الأبي ـ مخطوط رقم 10770 ـ المكتبة الوطنية بتونس.

  ومخطوط رقم 21269.

  ومخطوط رقم 3453.
- عمر السلامي ـ الإعجاز الفني في القرآن ـ تونس ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله 1980م.